الكتاب الثاني

من واقعة نهر الوردار الى الاستيلاء على نيقية

مسيرة النورمان الايطاليين ـ ذهاب بوهموند الى القسطنطينية. الامراء الصليبيون في القسطنطينية ـ قسم الولاء ـ زحفهم نحو نيقية. حصار نيقية والاستيلاء عليها.

٥ ـ وبعث الامبراطور في الوقت نفسه واحدا من رجاله المقربين الى مبعوثينا ، وكان هذا ممن يحتل مكانة سامية لديه ، ممن يدعونهم مواليه ، بعثه ليتولى ارشادنا الى السبل الامنة في جميع بلاده وحتى نصل الى القسطنطينية وكان يأمر ـ اثناء جوازنا ببلدانه ـ السكان بحمل الاقوات كما فعل الذين تحدثنا عنهم قبل ، وكان هؤلاء السكان قد استولى عليهم الخوف ، وكانوا يخشون من عساكر الامير بوهموند الاشاوس ، حتى انهم لم يأننوا لواحد منا باجتياز اسوار مدنهم ، وحدث ذات مرة ، ان اراد واحدا من رجالنا مهاجمة احد الامكنة الحصينة والاستيلاء عليه ، راغبا في حيازة ماكان فيه من نخائر كثيرة ، ورفض بوهموند الحكيم طلبه واذكر عليه محاولة مغادرة مكانه الا بموافقته وذلك تمسكا بوعده الذي قطعه للامبراطور ، وقد غضب غضبا شديدا من تاذكرد ، واشتد غضبه ايضا على بقية الآخرين [٢٣] ، وقد جرت هذه الواقعة ليلا ، وفي صباح اليوم التالي خر · سكان المدينة يطوفون بارجائها ، وهم يحملون الصلبان في ايديهم ، ومثلوا امام بوهموند الذي رحب بهم ، وهش لهم ، ثم صرفهم بعدما طمأنهم على انفسهم وعلى بلدهم.

ووصلنا بعد ذلك الى بلدة تدعى سيرا [٢٤] حيث اقمنا معسكرنا ولقد وجدنا بها كمية وافرة من المؤن المناسبة لهذا الموسم ، وعقد بوهموند هناك اتفاقية مع اثنين من كبار عمال الامبراطورية ، وقد دفعته رغبته في الحفاظ على سلامة الارض ومحبته لهما على اصداره الاوامر الى رجالنا للقيام باعادة جميع السائمة التي

انتهبوها ، وانتهى بنا المسير بعدئذ الى مدينة روسا (٢٥) ، فخرج اهلها من الاغريق جميعا فرحبوا بنا ، ونصبنا بها خيامنا في يوم الاربعاء ـ المقدس ـ السابق لعشاء الرب السري الاخير (٢٦) ، وترك بوهموند جميع قواته هناك ، واصطحب معه شرذمة صغيرة من الفرسان ، وعهد الى تانكرد بقيادة جند المسيح ، وعندما وجد تانكرد الحجاج يقدمون على شراء الاطعمة ، تعهد بالابتعاد عن الطريق العام ، وقيادة الشعب الى مكان يستطيع ان يجد فيه المؤن بوفرة ، وعلى هذا توغل في واد فيه كل شيء ضروري للعيش ، وقد احتفلنا فيه احتفالا بهيجا بعيد القيامة .

٦ ـ وعندما عرف الامبراطور بان بوهموند العظيم المبجل في طريقه اليه ، امر باستقباله بكل حفاوة ، وانزله في منزل فاخر واقع خارج المدينة (٢٧) ، ولما نفض عنه غبار السفر واستجم قليلا ، بعث الامبراطور اليه يسأله القدوم عليه للتفاوض معه على انفراد ، ولقد اشترك في الاجتماع كل من غودفري واخيه (بلدوين)وكان كونت صنجيل قد اقترب انذاك من المدينة ، وقلق الامبراطور من ذلك وغضب غضبا شديدا ، واخذ يحيك مؤامرة تمكنه من تسخير عساكر المسيح لصالحه ، سواء أكان عن طريق المكيدة أم الخداع ، لكن العناية الربانية صرفت عنهم كل مكيدة ولم تمكنه لاهو ولارجاله من ايقاع ادنى أذى بهم ، وفي هذا الوقت الذي كان فيه بوهيموند وغودفري مجتمعين بالامبراطور ، اجتمع في مكان آخر جميع مقدمي البطارقة (النبلاء) الذين كانوا في القسطنطينية ، وخافوا أن يفقدوا مدينتهم ، فقاموا بتدبير بعض الخطط الخرقاء ، حيث خيل اليهم ان زعماء جيشنا والأمراء سيقدمون على أداء قسم الولاء للامبراطور ، لكن رجالاتنا رفضوا مطلب الامبراطور وعروضه وقالوا : ان هذه أمور مزرية بنا ، ولايجوز لنا أن نقسم يمين الولاء فلربما غرر بنا زعماؤنا ، وآنذاك من الذي يمكنه حسم هذه المسألة فقد يقولون عند ذاك : ان الضرورة الملحة قد حملتنا على الخضوع والانصياع لمشيئة الامبراطور .

ووعد الامبراطور الأمير بوهموند الشجاع ، والذي كان يخشاه حيث انه فر من أمامه أكثر من مرة ، وعده أن يقطعه أرضا وراء انطاكية ، تمتد مسيرة خمسة عشر يوما طولا وثمانية أيام عرضا ، مقابل تقديم بوهموند يمين الولاء له ، من غير تردد ، ووعده الامبراطور أنه لن يتخلى عن عهوده اليه ، مادام متمسكا بولائه (٢٨) ، وغريب حقا كيف تصرف هؤلاء الفرسان الشجعان الأشاوس هذا التصر ؟ لا شك ان الحاجة الملحة ارغمتهم على القبول بتقديم قسم الولاء.

وتعهد الامبراطور من جهته لرجالنا بالوفاء بعهوده ، وأنه سيضمن سلامتهم ، لابل قد أقسم أنه سيرا فقناشخصيا ومعه جيشه واسطوله ، وأنه سيؤمن جميع المؤن التي سنحتاجها برا وبحرا ، من غير تباطؤ ، وسيسعى الى تعويض جميع خسائرنا ، وتدارك كل ماسنحتاج اليه ، حتى لايشعر أحد من الحجاج ، وهم في طريقهم نحو القبر بشيء من الخوف أو الملل ،

وكان الكونت صنجيل مقيما في هذا الوقت في احدى المقاطعات ، وبقي جيشه معسكرا في الخلف ، وبعث اليه الامبراطور يطلب منه أن يقسم يمين الولاء له كما فعل غيره من الأمراء ، ورفض صنجيل وشرع يخطط ساعتئذ للانتقام من الجيش الامبراطوري لكن الأمير غودفري وروبرت كونت فلاندر مع بقية البارونات عذلوه وأخبروه أنه ليس من العدل أن يشهر سيفه في وجه الامبراطور ولمحاربة المسيحيين ، وزاد بوهموند العاقل على ذلك أنه اذا أقدم (كونت تولوز) على ارتكاب أي عدوان ضد الامبراطور ، وخالف ماتعهد به بقية الأمراء ، فانه ـ اي بوهموند ـ سيقف بنفسه ضده والى جانب الامبراطور ولدى سماع صنجيل هذا مضى للتشاور مع رجاله ، ثم عاد فأقسم يمين الولاء والتبعية للامبراطور ، وتعهد بالحفاظ على حياة الامبراطور واحترام ارادته ، وتشريف مكانته ، وعدم تعريضه للاساءة أو المهانة من قبله أو من قبل واحد من رجاله ، ومع هذا يلاحظ أنه عندما وجهت الدعوة اليه لحضور الحفل العام الذي أقامه

الامبراطور احتفاء بما تعهد به الأمـراء ، رفض الدعوة وأصر على رفضه وأعلن أنه لن يستجيب حتى لو قاده رفضـه الى مـوته وتلف نفسه ، وفي الوقت الذي كان هذا كله يحـدث في العـاصمة اقتـرب جيش بوهموند منها .

٧ ـ وحتى يتجنب كل من تانكرد ورتشارد السالرني أداء قسـم الولاء للامبراطور تسللا هاربين وعبرا البوسفور خفية ، واصطحبا معهما الجزء الأكبر من عساكر بوهموند ، ولم يلبـث جيش الكونت صنجيل أن وصل الى القسطنطينية ، حيث أقام هو ورجـاله بعض الوقت ، وبقي بوهموند في صحبة الامبراطور للتشـاور معـه حـول الوسائل المجدية التي ينبغي اتخاذها لتسهيل عبور القوات الموجودة وراء نيقية ، بينما مضى الأمير غودفـري الى نيقـوميديا وبـرفقته تانكرد وبقية الأمراء ، ولبث الجميع هناك ثلاثة أيام .

ولما وجد الأمير (غودفري) أنه ليس هناك طريق يمكن المسير عليه وقيادة هذه الأعداد نحو نيقية ، فالطريق الذي سبق أن عبره الصليبيون الأوائل لايتحمل حشودا كثيفية مثل هذه الحشود ، أقول لما وجد غودفري الحال على هذه الصورة ، قدم أمـامه سرية فيهـا ثلاثة آلاف رجل وسلحها بالفؤوس والسيوف ، وأمـرها أن تتقـدم أمام الجيوش وأن تقوم بتمهيد الطريق وتوسيعه ليتمكن حجاجنا من عبوره الى نيقية ، وبالفعل تمكن هؤلاء الرجـال مـن شـق طـريق مناسب عبر شعاب احد الجبال العالية ، وقاموا أثناء عملهم بصنع كمية من الصلبان من الخشب والحديد ، ونصبوها على شكل صوى لتكون وسيلة ارشاد لحجاجنا ، وهكذا وصـلنا الى أحـواز مـدينة نيقية حاضرة بلاد آسية كلها ، وكان يوم وصولنا هو السادس مـن أيار، و هنا أقمنا معسكرنا .

ومضينا قبل وصول الأمير بوهموند نلتمس الخبز ، فلم نجـد الا القليل منه ، حتى أن الرغيف الواحد كان يبـاع بعشرين أو ثـلاثين ديناري ، ولما وصل بوهموند الحكيم جلب معه عن طريق البحر مؤنا

كثيرة ، وتوالى بعد هذا وصـــول الامـــدادات عبـــر اليابســـة والماء ، فعمت الفرحة العظمى بين صفوف عساكر المسيح .

٨ ــ وشرعنا يوم صعود الرب (٢٩) في مهاجمة المدينة مـن جميع أطرافها ، وقمنا بصنع عدد من الأبـراج الخشـبية زودنا بعضـها بأكباش أردنا أن نهدم بهـا أبـراج الأسـوار ، وبعـد مضي يومين استطعنا أن نقترب من أسوار المدينة بكل شجاعة واندفاع ، فهدمنا أسوارها وككنا أبراجها ، وقـام التـركمان المدافعـون عن المدينة بإرسال رسالة استغاثة ، وعندما وصـلت النجـدات بعثـوا اليهـا يقولون : أقبلوا غير هيابين ، واقتربوا غير وجلين ، وادخلوا مـن الباب الجنوبي لأنكم لن تجدوا في هذه الناحية من يعترض سـبيلكم أو يقف في طريقكم .

وفي اليوم نفسه ــ اي يوم السبت التالي ليوم صعود الرب تمكن الكونت صنجيل وأسقف بـــوي مـــن احتـــلال تلك الجهـــة الجنوبية ، وخرج هـــذا الكونت ، الذي جـــاء مـــن بـــلاد غير بلادنا ، خرج ترعاه العناية الربـانية ، وهـو يزهـــو بـــأسلحته الدنيوية ، فـــانقض بجيشـــه على التـركمان الذين كانوا يزحفـون نحونا ، وحيث أنه كان مسـلحا بشـــارة الصـــليب مـــن جميع الجوانب ، فقد استبسل في هجـومه عليهـــم وقـــاتلهم بشـــدة متناهية ، فألحق بهم الهزيمة وانتصر عليهم ، فلاذوا بالفرار بعدما خلفوا وراءهم أعدادا كبيرة من القتلى ، وكانت جماعة أخرى مـن التركمان قد أقبلت تريد نجدة من سبقها ، أقبلت ونفـوس رجـالها تفيض سرورا وأملا بـالنصر المحقـق ، وأحضروا معهـم الحبـال ليربطوا بها رجالنا ، ويأخـذوهم معهـم مصـفدين بـالأغلال الى خراسان ، وكانوا في حالة من النشوة والطرب ، وأخذوا ينحـدرون فئة تلو أخرى من قمة مـرتفع ، وكانوا كلمـا وصـلوا الى السـهل ليستقروا هناك ضربت أعناقهـم بـأيدي رجـالنا ، الذين أخـــذوا يضعون رؤوس هؤلاء القتلى في العرادات ويقذفون بهـا الى داخـل المدينة بغية نشر الرعب بين صفوف سكانها التركمان .

وتبادل بعد هذا كونت صنجيل وأسقف بوي الرأي و اتفقا حول الوسائل التي تمكنهما من هدم أحد الأبراج ، وكان قائما أمام معسكريهما ، وقد عمدا الى ارسال عدد من الرجال لحفر نفق تحته بغية تعليقه ، ومضى هؤلاء بحماية جماعة من حاملي الأقواس والنشاب ، وجرت عملية الحفر بنجاح ، وتم وضع كمية من الأخشاب تحت أساسات البرج ، ثم أضرمت فيها النيران ، ومع حلول الظلام إنهار البرج ، غير أن القتال توقف بسبب الظلام ، فانتهز التركمان الفرصة وخرجوا في الليل الدامس فرمموا ماتشعث من الأسوار حتى عادت أقوى مما كانت عليه ، وفي الصباح رأى رجالنا ذلك وأدركوا أنه بات من المحال انزال الأذى بالعدو من تلك الجهة .

وتلاحق وصول العساكر ، فوصل روبرت (كونت هيوز) النورمندي ، والكونت ايتين (٣٠)، وغيرهما كثير ، ثم وصل روجر دي بانفيل ، وقام بوهموند بمهمة حصار المدينة من الجهة الأمامية ، ووقف الى جانبه تانكرد ، ثم التحق به الأمير غودفري وكونت فلاندر يعاونه روبرت دوق نورمندي ثم الكونت صنجلي ومعه أسقف بوي ، واشتد الحصار الذي ضرب على نيقية من جهة البر شدة كبيرة ، ولم يعد بامكان أحد ما الخروج من المدينة أو الدخول اليها ، ووقف الجميع في هذه الساعة وقفة رجل واحد ، لكن من الذي يمكنه احصاء تعداد جيش المسيح ؟!

ويخيل لي أنه لم يتأت لأحد ، ولن يتأتى لانسان أن يشاهد مثل هذا العدد الهائل من الفرسان ، وهم في غاية التأهب والاستعداد (٣١) .

لكن كانت هناك بحيرة كبيرة واقعة في الجهة المقابلة لنيقية ، فيها قوارب للتركمان ، الذين ملكوا حرية الخروج من مدينتهم لجلب الأعلاف والأخشاب وغير ذلك من أنواع العتاد ، وتشاور قادتنا حول هذا الأمر ، وقر قرارهم على ارسال مبعوثين عنهم الى

القسطنطينية يطلبون من الامبـراطور انقـاذ عدد مـن السـفن الى شفتوت حيث وجد فيها ميناء ، كما طلبـوا منهـم أن يوعز بجمـع ماأمكن جمعه من الثيران ، وسوقها عبر الجبـال والأحـراش الى أحواز البحيرة ، وسرعان ماتم تنفيذ ذلك ، وبعـث الامبـراطور في الوقت نفسه مرتزقته ، وجلبت القوارب ، ولم ير القوم انزالهـا الى الماء في وضح النهار ، لكن عندمـا حـل الظـلام انزلوهـا الى البحيرة ، واعتلاها المرتزقة وهم في كل اسـلحتهم ، ومـع بـزوغ الفجر شوهدت القوارب الصغيرة وهـي تجـدف وسـط البحيرة في أحسن نظام ، ميممة شطر المدينة ، ومـاكاد التـركمان يرون هـذا المشهد ، حتـى تملكتهـم الدهشـة واحتـاروا في أمرهم ، وتساءلوا : أتـراها لقـومهم أم أنهـا لعسـاكر الامبراطور ؟ وسرعان مـاعرفوا أنهـا نجـدة مـن الامبراطور ، فاستولى عليهم الرعب ، وهلعوا ، واجهشوا في البكاء والنحيب بينما كان الفرنجة يطيرون فرحا ، ويمجدون الرب .

ولما ايقن التركمان في النهاية ، انهم لن يستطيعوا تلقي اية نجدة من جيوشهم ، ارسلوا سفارة الى الامبراطور ، تخبره باستعدادهم لتسليم البلد له ، اذا سمح لهم بالخروج مـع نسـائهم و أطفـالهم و جميع ما يملكون ، و سر الامبراطور و ابتهج ، و دفعته سوء طـويته الى القبول و الايعاز باخراجهم آمنين ، و ارسالهم سالمين مطمئنين الى القسطنطينية للمثول امام جلالته ، و عاملهـم بـاللطف و اللين ليكونوا على استعداد للتعاون مع و نصب كمائن للفرنجة ، و اقـامة العقبات في طريقهم (٣٢) .

واستمر حصار نيقية سبعة اسابيع وثلاثة ايام ، واسـتشهد فيه العديد من رجالنا ، وعرجت ارواحهم الطـاهرة الى الرب مغتبـطة جذلى ، ومات كثير من الفقراء جوعا في سـبيل تمجيد اسـم الرب ، وصعدت نفـوسهم منتصرة الى السـماء مجللة بـاثواب الشـهادة البيضاء ، وهي تهتف جميعا بصوت واحد:« حتى متى ايها السـيد

القدوس الحق لاتقضي وتنتقم لدمائنا من الساكنين على الأرض ، انت يامن تستحق مدائحنا جيلا بعد جيل ، لك المجد ، آمين» (٣٣) .

زحف الصليبين نحو آسية الصغرى

معركة دوريليوم(٣٤)(اول شهر تموز ١٠٩٧)

٩ ـ وسار التركمان ، بعد سقوط نيقية ، الى القسطنطينية للقاء الامبراطور ، الذي ازداد سرورا بكل ما حدث ، فأقدم على توزيع الكثير من الهبات على فقرائنا.

ووصلنا في اليوم التالي لمغادرتنا نيقية الى جسر (٣٥) ، خيمنا للاستراحة على مقربة منه لمدة يومين ، واستيقظ رجالنا مع بزوغ فجر اليوم الثالث ، وكان سكون الليل ما زال مخيما ، ولما لم يستطيعوا ركوب الطريق نفسه معا ، انقسموا إلى فريقين ، سار كل منهما على طريق ، وكانت المسافة بينهما حوالي اليومين ، وسافر مع الفريق الأول كل من بوهموند ، وروبرت دوق نورمنديا وتانكرد العاقل وسواهم كثير .

وانقض التركمان في اليوم الثالث انقضاضا عنيفا على بوهموند وصحبه ، وشرع الأعداء يصرون على اسنانهم ، ويصرخون صرخات عالية مدوية ، وهم يرددون بألسنتهم عبارة شيطانية لا اعرفها (٣٦) ، ولما رأى بوهموند العاقل هذا العدد الهائل من التركمان مندفعين بكل شدة وهم يزمجرون بصوت مرتفع كمن به مس من الشيطان ، امر بعض الفرسان بالترجل من على مطاياهم ، والاسراع في نصب خيمته ، وقبل أن يتم نصبها أعاد قوله : على جميع الفرسان ، عليكم أيها المبجلون يا فرسان المسيح الشجعان ، التميز عن الرجالة في الذهاب قدما نحو اليمين ، وليبادر الرجالة إلى إقامة المعسكر وليكن رائدهم العقل ، فنحن نواجه يوما عصيبا والعدو محدق بنا من كل الأطراف .

وما أن انجز هذا كله حتى احاط بنا التركمان من كل جانب ، واخذوا في محاربتنا برمينا بالحراب ورشقنا بالنشاب من مسافة

بعيدة وبشكل مدهش ، فأجمعنا على الخروج بغية صدهم على الرغم من عجزنا عن مقاومتهم وعدم قدرتنا على احتمال وطأة هجوم هـذا الحشد الكبير من الأعداء ، وقدم النسوة لنا في ذلك اليوم مساعدات كبرى مشكورة ، إذ قمن بحمل الماء إلى رجالنا ليطفئوا بها ظمأهم ، ولم يتوقفن عن تحميسهن وحثهن على مثـابرة القتـال والمدافعـة ، وسارع بوهموند الحكيم إلى إعلام الآخـرين ، وأعني بهـم الأمير غودفري ، والكونت صنجيل وهيوج الكبير ، وأسـقف بـوي وبقية فرسان المسيح ، وطلب منهم المبادرة دون توقف للسير نحو المعـركة مخاطبا إياهم بقوله : « من أراد منكم أن يسـهم اليوم بنصـيب في الحرب فليقدم شاهرا سـيفه غير متـردد » ، واسـتجابوا لندائه ، وكان غودفري المعروف بشدة اقدامه وشجاعته ، وهيوج الكبير أول الواصلين على راس قواتهما ، ولم يلبث أن وصل أسقف بوي ومعه عساكره ثم تلاه كونت صنجيل في جيش كثيف التعداد .

واستبدت الدهشة برجالنا وراحوا يتساءلون: عجبا من اين يمكن لمثل هذا العدد الهائل من التركمان والعرب والمشارقة وسواهم أن جاء ، ذلك أن هذا الجنس الآثم ، والمحروم من رحمة الرب قد غطى بحشوده الكثيفة وجه الأرض في الجبال والتلال والسهول والوديان ، في داخل المدينة وخارجها ، وجرت بين صفوفنا مشاورات عاطفية ، قلنا فيها بعد حمد الرب وتبادل الراي : « اعملوا كل ما في وسعكم ، وابذلوا كل جهد ، واعتمدوا كل وسيلة للاتحاد في سـبيل نصرة دين المسيح ، والدفاع عن الصليب المقدس ، ذلك انكم إذا ارضـيتم الرب هذا اليوم انقلبتم أغنياء موفوري الثراء » .

ولم يلبث شمل رجالنا أن التـأم ، وعبـئت الصـفوف ، وكان على المجنبة اليسرى كل من بـوهموند الحـكيم ، وروبـرت النورمندي ، وتانكرد الفطن ، وروبرت دي انزا ، ورتشارد السالرني ، وزحـف أسقف بوي من وراء مرتفع لتطويق التركمان الكفرة ، وكان معهـم على المجنبة اليسرى ريموند كونت صنجيل ، وهـو الفـارس الذائع الصيت ، وكان الأمير غودفري على المجنبة اليمنى ، ومعه الفـارس

المقدام كونت فلاندر ، وهيوج العظيم ، وآخرون كثير ممن لا أعرف أسماءهم .

ولدى اقتراب فرساننا بادر التركمان والعرب والمشارقة والغلمان وجميع شعوب البرابرة ، إلى الفرار لا يلوون على شيء من منافذ الجبال ومسالك السهول ، وكان عدد التركمان والفرس والرعاع والمشارقة والغلمان وسواهم من الوثنيين يبلغ ستين الفا وثلاثمائة الف مقاتل ، هذا عدا عن العرب الذين لا يعرف عددهم غير الله ، وهربوا نحو خيامهم بكل سرعة ، بيد انهم لم يتمكنوا من المكوث بها طويلا ، واضطروا إلى متابعة الفرار ونحن نلاحقهم ونجري في اثارهم نقتل فيهم سحابة يوم كامل ، وقد استولينا على غنائم عظيمة من الذهب والفضة والخيول والجمال والحمير والسائمة والأبقار ، وأشياء لا تحصى غير هذه مما لاأعرفها ، وما كان لواحد من رجالنا أن ينجو في هذا اليوم لولا وجود الرب معنا على ساح المعركة ، ولولا انه تداركنا بإرسال الجيش الآخر بالسرعة القصوى ، وقد استمر القتال دونما توقف من الساعة الثالثة حتى التاسعة ، ولم يرض الرب المتعالي الرحيم أن يهلك فرسانه ، او أن يقعوا في قبضة الأعداء ، فلعث لنا بهذه النجدة (٣٧) على جناح السرعة ، وقد قتل في هذا اليوم اثنان من فرساننا النبلاء وهما: غودفري دي مونت سكابوزر ووليم ابن المركيز اخو تاذكرد ، كما لقي غيرهم من الفرسان والرجالة الذين لا اعرفهم مصرعهم ايضا.

من هو الرجل البصير العاقل الذي يجرؤ على وصف براعة التركمان ومواهبهم الحربية ومقدار شجاعتهم ؟ كان قد خيل إليهم انهم سيدخلون الرعب إلى قلوب امة الفرنجة عن طريق تهديدهم إياهم بنشابهم كما سبق وفعلوا بالعرب والمشارقة والأرمن والسوريين والأغريق ، لكن إذا قضى الرب الا يتغلبوا على رجالاتنا فإنهم لن يجدوا إلى ذلك سبيلا ، ولقد كان حقا ما قيل من انه لا يجوز لأحد أن يدعي الفروسية إذا لم يكن من بين الفرنجة او التركمان ، وسأقول أنا بدوري الحقيقة ، ولن يستطيع احد

مناقضتي : لو أن التركمان امنوا إيمانا مطلقا بالمسيح واتبعوا دين المسيحية المقدسة ، وتأتى لهم أن يعترفوا بإله واحد في ثلاثة اقانيم ، هي : ابن الله المولود من العذراء ، الذي عانى ثم قام من بين الأموات ، وصعد إلى السماء أمام أعين حواريه ، وارسل التعزية الكاملة بالروح القدس ، وفيض إليهم أن يؤمنوا أيضا إيمانا صافيا حقيقيا بأن له الحكم في السماء والأرض ، لما وجدنا انسانا يمكن أن يعادلهم في القوة والشجاعة والبراعة في القتال (٣٨) .

لقد شاءت إرادة الرب أن يواجهوا الهزيمة على أيدي رجالنا ، وكانت هذه المعركة يوم أول تموز .

الكتاب الرابع

الزحف الصليبي نحو انطاكية

عبور الصليبيين آسية الصغرى ـ ذهاب كل من بلدوين وتانكرد الى طرسوس

جواز أرمينية الصغرى واقليم كبدوكية ـ وصولهم الى أبواب انطاكية

١ـ بعد ايقاع الهزيمة الساحقة بالتركمان أعداء الرب والمسيحية المقدسة ، وفرارهم لمدة أربعة أيام وأربع ليال متوالية سويا ، وصل الخبر بأن زعيمهم سليمان بن سليمان الكبير قد انهزم نحو نيقية ، حيث صادفه عشرة آلاف عربي فقالوا له : « أيها التعس ، يا أشقى الناس طرا ، ما الذي حملك على الفرار » ؟ فأجابهم سليمان بقوله : عندما انهزم الفرنجة من قبل ، كنت أحسب أنني سآخذهم أسرى مقرونين بالأصفاد ولما أردت ربطهم جماعة تلو أخرى ، أبصرت من ورائهم حشود كثيفة لا تعد ولا تحصى ، ولو أتيح لكم أو لغيركم الحضور لشهدتم حشودهم تغطي وجه الأرض والجبال والسهول والتلال والوديان ، فنحن لم نكد أن نراهم حتى استولى علينا الفزع ، واستبد بنا الهلع ، ولم نعد ندري ما نفعل ، فقد سرنا حتى كدنا أن نقع في أيديهم ، والآن إذا كنتم تثقون بما أقول ، ارحلوا من هنا لتوكم ، إذ لو عرفوا خبر قدومكم ، لما نجا أحد منكم ، فلما سمعوا مقالته هذه ولوا الأدبار ، وتفرقوا أيدي سبأ ، وانسابوا في جنبات آسيا الصغرى .

أما نحن فلم نتوقف من جانبنا عن ملاحقة أولئك التركمان الطغاة ، الذين كانوا يلوذون بالفرار من أمامنا يوميا ، وكانوا كلما مروا ببلد أو موقع حصين كذبوا على أهله وخدعوهم قائلين : « لقد هزمنا المسيحيين جميعا وكان نصرنا عليهم مؤزرا ، إلى حد أنه لن يجرؤ بعد اليوم أحد منهم على الوقوف أمامنا ، لهذا دعونا ندخل

عليكم » ، لكنهم كانوا ما يكادون يدخلون البلد حتى يعملوا يد السلب والنهب في جميع البيوت والكنائس وفي كل ما اعترض سبيلهم ، وكانوا يستولون على الخيول والحمير والبغال وجميع الذهب والفضة وعلى كل ما وصلت إليه أيديهم ، ثم كانوا ينطلقون ومعهم أبناء النصارى ، لكن بعد أعمالهم الحرق والتهديم في كل ما عجزوا عن حمله والانتفاع منه ، كانوا يفعلون هذا كله وهم يفرون من أمامنا ويخشون لقاءنا ، ولقد طاردناهم عبر الصحارى والفيافي الخالية من الماء والحياة ، فأحاق بنا الخطر ، وكدنا الا نخرج أحياء ، وعانينا من الجوع وشدة الظمأ ، ولم نجد ما نسد به الرمق غير الشوك الذي كنا نقتلعه ونسحقه بأكفنا ، فهذا هو الطعام الذي عشنا عليه ونحن في أشد حالات السغب ، وقد نفقت معظم خيولنا ، واضطر كثير من فرساننا إلى الترجل ، ولقد الجأنا النقص في المطايا إلى استخدام الثيران بدلا من خيول القتال ، واستعملنا ونحن في وسط العوز الماعز والخراف وحتى الكلاب لحمل أمتعتنا .

ووصلنا بعد ذلك إلى منطقة شديدة الخصب ، تفيض بالمأكولات والأطايب ، وتزخر بشتى أنواع الحياة ، واقتربنا من مدينة قونية ، حيث نصحنا أهلها أن نحمل معنا كميات زائدة من المياه ، لأننا سنفتقده طوال يوم كامل من مسيرتنا ، ووصلنا بعد ذلك إلى نهر اقمنا إلى جواره مدة يومين ، واستمر أعداؤنا في التقدم أمامنا حتى أفضى بهم المسير إلى مدينة هرقلية ، حيث وجد هناك فريق كبير من التركمان يعد العدة للتصدي لجند المسيح ويبحث عن أجدى الوسائل التي تؤذيه ، وما كاد جند الرب يرون هؤلاء التركمان حتى انقضوا كالأسود عليهم ، وحملوا عليهم حملات شديدة ، فأسرع أعداؤنا إلى تولية الأدبار ومضوا فارين كسهم شديد انطلق من قوسه ، وسرعان ما اقتحم رجالنا المدينة ، حيث لبثنا فيها مدة أربعة أيام .

وهناك تميز تانكرد بن المركيز عن الآخرين وانفصل عنهم ، وحذا حذوه الكونت بلدوين أخو الأمير غودفري ، ودخلا معا وادي بوثرنلوت ، ولم يلبث تانكرد أن مضى وحده وانطلق على راس

فرسانه حتى وصل إلى طـرسوس ، فخـرج التـركمان في جمـاعة واحدة ، واصطفوا لقتال المسيحيين ودفعهم ، إنما عندما دنا رجالنا منهم لحربهم ، لانوا بالهرب ، وانصرفـوا نحـو المدينة مسرعين ، فثنى تانكرد فارس المسيح عنانه ، وضرب مخيمه أمام باب المدينة .

ووصل بعد قليل ، من جانب آخر الكونت بلدوين مع جيشه وسـأل تانكرد أن يقاسمه المدينة ، فأجابه : إنني أرفض كل شراكة معك ، ولما حل الظلام فر جميع التركمان مذعورين ، وعندئذ تسربل سـكان المدينة وخرجوا يهتفون : « اقبلوا أيها الفرنجة المنتصرون ، اقبلوا فإن التركمان ارتعشوا خوفا وفروا جميعا في آن واحد » .

ومع اشراقة الصـباح جـاء أعيان المدينة إلى معسـكر الفـرنجة وسلموا المدينة عن طـواعيه وخـاطبوا المتنازعين حـول تملكهـا بقولهم : اقصروا أيها السادة ، فنحن نرغب إليكم ونرجوكم تـولية هذا [تانكرد] علينا ، فهـو الذي اسـتبسل بـالأمس في قتـال التـركمان ، لكن الكونت بلدوين المحبـوب اعتـرض وحـاجج تانكردبقوله : « لندخل المدينة معا ، ولنتول نهبها ، وليتول أمـرها بعد ذلك من يصب منا النصـيب الأوفى ، وليحتلهـا مـن يسـتطيع حربها » فعاود تانكرد الشجاع الرد بقوله :«ما أمقت هـذا المسـلك إلى نفسي، وما أبعدني عنه ، إنني لا أريد أن أسـلب المسـيحيين ، ولقد اختارني أعيان هذه المدينة أميرا عليهم وهم لا يريدون سواي أميرا » لكن هذا الأمير الشجاع لم يجد في نفسه الرغبـة في متـابعة الخصام مع الكونت بلدوين الذي كان يقود جيشا كبيرا ، وتخلى عن المدينة طواعية أو مرغما ، وانسحب بـكل شـجاعة ، وسرعان مـا استسلمت له مدينتان هما : أذنة والمصيصة ، كما دان له العديد من الحصون .

١١ ــ ومع هذا كله ، فقد تابع الجيش العظيم تقدمه ، وفيه ريموند الصنجيلي ، وبوهموند البارع ، والأمير غودفري ، وسواهم كثير ، ودخلوا بلاد الأرمن وبهم ظمأ شديد إلى دمـاء التـركمان ، وعطش إلى الارتواء منها ، وقادهم زحفهم إلى حصن شديد المناعة ، وقفوا

امامه عاجزين ، وكان يقيم فيه رجل اسمه سيمون من اهل البلد (٣٩) ، فسألهم ان يعهدوا اليه بأمور الدفاع عن تلك البقعة من الأرض ضد محاولات اعدائه من التركمان ، فمنحه الفرنجة اياها فأقام بها مع ابناء جنسه.

ثم غادرنا تلك المنطقة ، ووصلنا ونحن في انعم بال إلى قيصرية من اعمال كبدوكية ، ثم توجهنا إلى مدينة فخمة رائعة الجمال ، كثيرة الثروات (٤٠) ، كان التركمان قد اقاموا على حصارها ثلاثة اسابيع قبل قدومنا ، غير انهم عجزوا عن اخذها ، في حين انه ماكدنا نصل حتى القت بأيديها الينا عن طواعية وبكل سرور ، وتقدم واحد من الفرسان واسمه بطرس دي البيوس (٤١) ، وسأل جميع المقدمين اقطاعه اياها ليدافع عنها بكل ما أوتيه من طاقة في سبيل الرب والقبر المقدس ، والسادة النبلاء والامبراطور ، فأجمعوا على اجابة مطلبه ، ورضوا باقطاعه اياها.

وعلم بوهموند في الليلة التالية ان التركمان الذين كانوا يحاصرون هذه المدينة ، قد انتشروا في جوانب المنطقة ، فسارع على رأس فرسانه وحدهم دون غيرهم لمطاردتهم حيث كانوا ، لكن لم يتهيأ له اللقاء بهم .

ووصلنا بعد هذا إلى مدينة اسمها كوكسون ، وكانت المؤن التي نحن بأمس الحاجة إليها ، متوفرة فيها بكميات وافية ، وسرعان ما استسلم لنا مسيحيوها وادخلونا إليها ، فمكثنا فيها ثلاثة ايام في أرغد عيش ، فاستجم رجالنا واستردوا عافيتهم تماما .

ونما إلى مسمع الكونت ريموند [الصنجيلي] بأن التركمان المتولين لشؤون الدفاع عن انطاكية قد غادروها ، فأطبق تدبيره هو ومشاوروه على المسارعة في إرسال بعض فرسانه للاستيلاء عليها قبل فوات الوقت ، واقدم على اختيار كل من الفيكونت بطرس القشتالي ووليم دي مونبليه ، وبطرس دي روبيه ، وبطرس ريموند دوتيول ، وعهد إليهم بتنفيذ هذه المهمة ،و انفذ ببرفقتهم خمسمائة

فارس ، فساروا جميعا في واد يقع في احواز انطاكية ، حتى بلغوا من حصون البوبليكان ، وهناك علموا بأن المدينة لا زالت بأيدي التركمان ، وأن هؤلاء على استعداد للدفاع عنها بكل اصرار ، وتميز بطرس دي روبيه بمن معه ، حتى كان مساء اليوم التالي ، تجاوز انطاكية ودخل منطقة منخفض الروج ، فصادف به فريقا من التركمان والمسلمين فناجزهم القتال ، وأوقع بفئة كبيرة منهم ، ثم تعقب الباقين بعنف ، وما كاد الأرمن النازلون في هذه المنطقة يرون عظم الهزيمة التي الحقها بطرس بالعدو حتى أذعنوا له ، ودانت له الروج ، كما استسلم له العديد من الحصون الأخرى .

اما نحن الذين بقينا في كوكسون فقد غادرناها ، وتوغلنا في داخل جبل مرعب ، تلامس ذراه قبة السماء ، هذا إلى ضيق مسالكه ضيقا شديدا ،وسرنا في الطريق المجاور له ، ولم يتمكن واحد منا مزاحمة اخر في التقدم ، وكانت الخيول تسقط في الأودية ، وكان كل فرس حموله يجر فرسا اخر مقطورا وراءه .

وظهرت اثار الحزن واليأس على وجوه الفرسان جميعا ، واخذوا يلطمون وجوههم ويضربون كفا بكف حزنا ورعبا ، وراحوا يتسائلون : ماذا يمكنهم أن يصنعوا بأنفسهم واسلحتهم ، فمضوا يبيعون خيولهم وترستهم وخوذهم لقاء مبلغ تراوح بين ثلاث وخمس دينارى ، أو بأثمان زهيدة جدا ، والذين عجزوا عن بيعها قاموا بطرحها عن كواهلهم بلا مقابل ، وتابعوا طريقهم .

ولما خرجنا من هذا الجبل الملعون ، وصلنا إلى البلدة المعروفة باسم مرعش ، فخف اهلوها إلى استقبالنا وهم في غاية الفرح والترحيب ، وحملوا إلينا المؤن والأعلاف بشكل كبير ، فغدونا بأرغد عيش ، واقمنا بها ننتظر وصول الأمير بوهموند .

ووصل فرساننا أخيرا إلى الوادي الذي تقوم فيه انطاكية المدينة الملكية ، عاصمة بلاد الشام قاطبة ، التي منحها الرب عيسى المسيح

إلى بطرس سيد الحواريين ، ليعيدها إلى عبـادة الدين المقـدس ، وهو الذي ذهب ، وحكم مع الله الأب في عالم روح القدس . له المجد السرمدي . آمين .